الفصل الخامس

وصايا وتنبيهات مهمة

أوصي كل الطوائف التي نفرت مجاهدة في سبيل الله تعالى، سواء باليد والسنان أو بالقلم والبيان أو بالتربية والاحتساب -كما سبق بيانه- أن تقف في جهادها مع الوصايا الآتية:

الوصية الأولى:

النظر إلى تنوع ضروب الجهاد المختلفة التي سبق ذكرها، وكأنها جامعة مشتملة على كليات وتخصصات عدة يكمل بعضها بعضاً، وتجمعها جامعة واحدة، وإن اختلفت وسائل الجهاد من السيف إلى البيان إلى التربية والاحتساب، والنظر إلى هذا الاختلاف على أنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وبناء على هذه النظرة فإن التعاون والتواد بين هذه الطوائف هو الذي ينبغي أن يسود، كما ينبني عليه أيضاً أن تفرح كل طائفة نفرت في مجال معين بما تقوم به الطائفة الأخرى من جهاد، وتبذل لها الدعاء والمعونة حسب الاستطاعة، وعلى هذا فإنه لا يسوغ لطائفة نفرت في جهاد الغزاة الكافرين باليد والسنان أن تهوِّن من شأن من نفرت في جهاد الدعوة والبيان؛ لكونها لم تنفر في جهاد السنان، وكذلك الحال بمن نفر في جهاد البيان أو التربية والتحصين لا يسوغ له أن يهون من

شـأن من نفر للدفاع عن بلدان المسـلمين بالسـنان، بل ينبغي لكل طائفة أن تنظـر إلى أختهـا التي نفرت في عمل آخر على أنها تقوم بنوع من الجهاد تسانده وتفرح بما يتحقق على يد أفرادها من خير يفتح أو شر يغلق، نعم؛ من اسـتطاع أن يـضرب مع كل طائفة بسـهم، فيكون مع أهـل الثغور في جهادهـم، ومع أهل البيان ورد شـبهات المشـبهين في بيانهم، ومع المربين وأهل الاحتساب في احتسابهم وتربيتهم، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن أهله قليل، وليس في استطاعة أكثر الناس.

الوصية الثانية:

ينبغـي عـلى كل الطوائـف التـي قامـت لنـصرة ديـن الله ﷻ والذب عنه بشـتى أنـواع النصرة والجهـاد أن تتعرف على أسـباب النصر وأصول التمكين فتأخذ بها، وأن تعرف أسباب الخذلان والفشل والهزيمة فتحذرها وتتجنبهـا، وكل ذلـك مذكور في كتـاب الله ﷻ وفي سـير الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ولاسيما سيرة نبينا محمد ﷺ يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧]، ويقـول -سـبحانه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١]، وقد أجمل الإمام ابن القيم رحمه الله أصول النصر والتوفيق في قاعدة ذهبية قال فيها:

(..فـإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسـه أولاً، وكان قيامه بالله ولله لم يقـم لـه شيء، ولـو كادتـه السـماوات والأرض والجبـال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجاً ومخرجاً، وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في

هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد، فمن كان قيامه في باطل لم ينصر، وإن نصر نصراً عارضاً فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله، وإنما قام لطلب المحمدة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً، والقيام في الحق وسيلة إليه، فهذا لم تضمن له النصرة، فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نصر فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبداً، فإن كان صاحبه محقاً كان منصوراً له العاقبة، وإن كان مبطلاً لم يكن له عاقبة.

وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه برياً من الحول والقوة إلا به، فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زمر الأعداء)[1].

من هذا الكلام النفيس نخلص إلى أن الأركان المؤدية إلى الفوز والنصر والتوفيق ثلاثة أركان:

الركن الأول: أن يكون القيام في حق وليس في باطل، وذلك من قوله: (فإذا قام العبد بالحق).

---

(١) «أعلام الموقعين» (٢/ ١٧٨).

الركـن الثـاني: أن يكـون القيام لله تعـالى وطلب رضـاه، وذلك من قوله: (وكان قيامه لله).

الركن الثالث: أن يكون القيام بالله ﷻ استعانة به وتوكلاً عليه وحده، متبرئـاً من الحول والقـوة إلا به، وهذا يفهم من قولـه (وكان قيامه بالله). وبتفصيـل هذه القاعدة يتبـين لنا أن النصر والتمكـين يقوم على الأصول الآتية:

* * *

الأصل الأول

القيام بالحق بصحة الفهم والموافقة للشرع

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى...﴾ الآية [يوسف:١٠٨].

ويعني بهذا الأصل أن تقوم الدعوة، وينطلق التغيير من فهم صحيح وعقيدة صافية وبصيرة واضحة في الدين، كما جاء في كتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ وفهم الصحابة ﭫ، لأن أي دعوة أو جهاد تقوم على غير هذا بأن يزيد على ذلك أو ينقص؛ فإنها قد فرطت في هذا الأصل العظيم من أصول التمكين والنصر.

ويلحق بالفهم الصحيح ما يجب أن يكون عليه أصحاب الدعوة من عمل صحيح موافق لما كان عليه الرسول ﷺ، وذلك في عباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم، ومما يلحق بصحة الفهم: فهم الواقع والمحيط الذي يحيط بالدعاة والمجاهدين وطبيعته، واستبانة سبيل المجرمين ومخططاتهم وكيدهم.

كما يلحق بصحة الفهم وصحة الاتباع فهم مقاصد الشريعة والعلم بمسائل الخلاف ما يسع منها وما لا يسع، والعلم بفقه الموازنات وقواعد الترجيح بين المصالح عند تعارضها وبين المفاسد عند تعارضها، وبين

المصالح والمفاسد عند التعارض، وهذا العلم مما يحتاج إليه الدعاة والمجاهدين أمس الحاجة، وهم يواجهون النوازل والمستجدات والتعارضات في طريقهم، وإن الجهل به أو تجاهله ليعد من أسباب النكبات التي يتعرض لها الدعاة والمجاهدين في سبيل الله.

إن موضوع الموازنة بين المصالح والمفاسد أو فقه الأولويات معلم عظيم من معالم ديننا الحنيف، وهو ثابت في الكتاب والسنة، وقد كان هذا العلم رائد الصحابة، وعلماء الأمة، فما كان أحدهم يفتي إلا وهو يوازن بين المصالح لتحقيق مراد الله، وتتضمن الموازنات ثلاثة أمور:

الأول: الموازنة بين المصالح والمفاسد. **الثاني**: الموازنة بين المصالح بعضها مع بعض. **الثالث**: الموازنة بين المفاسد بعضها مع بعض.

ميزان الترجيح بين المصالح والمفاسد عند التعارض:

إذا تعارضت المصالح والمفاسد في مناط واحد كان الترجيح بينها على أساس ثلاثة أمور:

١ - الأهمية الذاتية للمصلحة والوسيلة إليها:

بما أن المصالح متفاوتة، ومتدرجة بحسب أهميتها في مراتب: أعلاها حفظ الدين، وأدناها حفظ المال، وبما أن الوسائل إلى تحقيقها متفاوتة كذلك، بدءاً من الضروري، وانتهاء بالتحسيني، فلذلك كان **هذا التدرج في الأهمية بالنسبة للمصالح والوسائل الميزان الأول للترجيح عند**

التعارض، فما تكون به ضرورة حفظ الدين مقدم على ما تكون به ضرورة حفـظ النفس، وما يكون بـه ضرورة حفظ النفس مقـدم على ما يكون به ضرورة حفظ العقل، وهكـذا. وذلك كالترخيص في شرب الخمر لإزالة الغصـة تقديماً لضرورة حفـظ النفس على ضرورة حفـظ العقل، وكإزالة محـال الخمور وإن ترتب على ذلك إتلاف الأمـوال الطائلة التي قامت بها هذه المحال تقديماً لمصلحة حفظ العقل على مصلحة حفظ المال.

والـضروري الذي تتحقق به إحـدى هذه المصالح مقدم على الحاجي عند التعارض، وهذا الحاجي مقدم على التحسـيني. ولا يسـتثنى من هذه القاعدة إلا استحباب تقديم الحاجي المتعلق بحفظ الدين على الضروري المتعلق بحفظ النفس، وذلك إعزازاً لجانب الدين الذي هو أسـاس القيم كلها، وذلك كقيام المسـلم بأمر السـلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر، وإن غلب على ظنه قتله، وإنما قيل بالاستحباب فقط استصحاباً للأصل الذي هـو جـواز الترخص في مثل هـذه الحال، وبنـاء على ذلك فلـو تعارضت ضرورة حفظ الدين بالجهاد مع حاجي ككون الأئمة عدولاً غير فسـاق، فإنه يقدم الضروري على هذا الحاجي، فيجب الجهاد مع الأئمة أبراراً كانوا أو فجاراً، ويمضي الجهاد لا يبطله جور الأئمة ولا فسـقهم، ولو تعارض أداء الجماعة وهو حاجي مع الاقتداء بالإمام الصالح، وهو تحسـيني -بأن كان الإمـام فاسـقاً أو مبتدعاً ولم يوجد غيره- ألغينا التحسـيني من أجل الحاجـي، وتعـين إقامة الجماعة خلف هذا الفاسـق أو المبتـدع، لأن التزام التحسـيني هنا لا يكون إلا بـترك الجماعة،وهذا يـؤدي إلى انتفاء الحاجي والتحسيني معاً.

٢- مدى شمول المصلحة

إذا كانت المصلحتان المتعارضتان في درجة واحدة من الأهمية الذاتية بأن كانتا في رتبة واحدة، ومتعلقتين بكلي واحد، انتقلنا إلى ضابط آخر للترجيح وهو مقدار شمولها للناس وانتشار آثارهما بينهم، فنقدم أشملهما على الأخرى، **إذ لا يعقل إهدار مصلحة جمهور الناس من أجل مصلحة فرد أو فئة قليلة منهم**، وذلك كترجيح الاشتغال بتعليم العلوم الشرعية على الاشتغال بنوافل العبادات لأن الأول أشمل فائدة من الثاني، وترجيح مصلحة حفظ عقول الناس من الزيغ على مصلحة الفرد في ممارسة حرية الرأي والكتابة عند تعارضهما، وكترجيح مصلحة عامة أهل السوق على مصلحة الواحد منهم في تلقيه للركبان والشراء منهم خارج البلدة.

٣- مدى تحقق الوقوع

وهو آكد ضوابط الترجيح بين المصالح والمفاسد عند التعارض، ذلك أن أساس اتصاف الفعل بكونه مصلحة أو مفسدة، إنما يكون بالنظر إلى ما يتمخض عنه في الخارج من النتائج، وهي ثلاثة أنواع: **١-مؤكد الحصول في العادة. ٢- مظنون الحصول. ٣- موهوم الحصول.**

* فحفر بئر خلف باب دار في الظلام مفسدة مؤكدة، والتجارة في مال اليتيم نقداً مصلحة مؤكدة.
* وبيع السلاح في الفتنة وبيع العنب للخمار مفسدة راجحة، والتجارة في مال اليتيم ديناً مع التوثيق مصلحة راجحة.

* وهجوم فئة قليلة من عزل المسلمين على أضعافهم من الكفار المدججين بالسلاح مصلحة موهومة، وبيع العنب لمن جهلت صنعته مفسدة موهومة، وعلى هذا فلا يجوز ترجيح مصلحة على أخرى إذا كانت مشكوكة أو موهومة مهما بلغت أهميتها أو درجة شمولها، بل لابد أن تكون مع ذلك مقطوعة الحصول أو راجحة.

ومن نفيس كلام شيخ الإسلام رحمه الله في ما يتعلق بفقه الموازنات، قوله رحمه الله:

(إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فَقُدِّم أوكدهما لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تاركاً لواجب في الحقيقة. وإن سمي ترك واجب باعتبار الإطلاق. ويقال في مثل هذا ترك الواجب لعذر، كما يقال لمن نام عن صلاة أو نسيها وصلاها في غير الوقت المطلق قضاءً.

في «الصحيحين» عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قالَ نبيُّ الله ﷺ: «**مَنْ نَسِيَ صَلاةً أَوْ نَامَ عَنْهَا؛ فَكَفَّارَتُها أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا**»[1]. فيسمى قضاءً باعتبار الإطلاق، وإلا فهو وقتها بالنسبة لمن نسي أو نام لوجود العذر.

وإذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرماً في الحقيقة، وإنما سمي فعل محرم بصفة الإطلاق لم يضر، ويقال في مثل هذا فعل المحرم للمصلحة الراجحة أو لضرورة أو لدفع ما هو أشد حرمة...

---

(١) البخاري (٥٧٢)، ومسلم (٦٨٤) واللفظ لمسلم.

... إن باب التعارض واسع جداً، لاسيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة...

... وإذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، واختلفت أنظار الناس:

* فأقوام ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب، وإن تضمن فعل سيئات عظيمة.
* وأقوام ينظرون إلى السيئات فيرجحون هذا الجانب، وإن تضمن ترك حسنات عظيمة.
* والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة، أو يتبين لهم فلا يجدون من يعنيهم العمل بالحسنات وترك السيئات، لكون الأهواء قارنت الآراء...

فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل، **وقد يكون الواجب في بعضها العفو عند الأمر والنهي في بعض الأشياء لا التحليل والإسقاط**، مثل أن يكون في أمره بطاعة فعلاً لمعصية أكبر منها، فيترك الأمر بها دفعاً لوقوع تلك المعصية، مثل أن ترفع مذنباً إلى ذي سلطان ظالم فيعتدي عليه في العقوبة ما يكون أعظم ضرراً من ذنبه، ومثل أن يكون في نهيه عن بعض المنكرات تركاً لمعروف هو أعظم منفعة من ترك المنكرات فيسكت عن النهي خوفاً أن يستلزم ترك ما أمر الله به ورسوله مما هو عنده أعظم

من مجرد ترك ذلك المنكر، والعالم تارةً يأمر وتارةً ينهى وتارةً يسكت، كالأمر بالصلاح الخالص أو الراجح أو النهي عن الفساد الخالص أو الراجح، وعند التعارض يرجح الراجح بحسب الإمكان.

فأما إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن إما لجهله وإما لظلمه، ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فربما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه، كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء والنهي عن أشياء، حتى علا الإسلام وظهر، **فالعالم في البيان والبلاغ كذلك** قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن، كما أخر الله سبحانه إنزال آيات وبيان أحكام إلى وقت تمكن رسول الله ﷺ إلى بيانها، يبين حقيقة الحال في هذا أن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

والحجة على عباد الله تعالى والوجوب والتحريم إنما تقوم بشيئين:

١- التمكن من العلم بما أنزل الله.

٢- والقدرة على العمل به.

فأما العاجز عن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين أو حصل العجز عن بعضه، كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله: كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالجنون مثلاً، وهذه أوقات الفترات فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه

لما جاء به الرسول ﷺ شيئاً فشيئاً بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئاً فشيئاً، **ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة**، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع، **فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به**، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها، وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين، ويذكر له جميع العلم فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير والمسئول أن يوجبه جميعه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفا الرسول -عليه الصلاة والسلام- عما عفا عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ **لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل**، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط فتدبر هذا الأصل فإنه نافع. ومن هنا يتبين سقوط كثير من هذه الأشياء، وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي، وإن كان واجباً في الأصل)[1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٨) وما بعدها.

الأصل الثاني

حسن القصد

ويعنى بهذا الأصل: إخلاص المقاصد لله ﷻ وصدق النية في الدعوة والتغيير بأن يكون القصد من ذلك التعبد لله ﷻ وابتغاء وجهه ورضاه وجنته، وإنقاذ الناس بإذن ربهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة إلى السعادة فيهما.

إن حسن القصد ينفي كل مقصد دنيوي، سواء كان رياء أو إرادة جاه أو مال أو منصب أو شهرة أو حزبية مقيتة.. إلخ؛ لأن وجود مثل هذه المقاصد في الدعوة يفسدها ولا يكون القصد فيها حسناً، ومن ثمَّ لا يبارك الله فيها، ولا ينصر أهلها، ولا يمكن لهم في الأرض ولو كانوا على فهم صحيح، لأنهم فرطوا في أصل عظيم من أصول التمكين، ألا وهو إرادة الله ﷻ والدار الآخرة. ولا شك أن تحقيق هذا الأصل العظيم في نفوس الدعاة يحتاج إلى جهد ومجاهدة ومناصحة وتربية علمية وعملية، يعتنى فيها بالقلوب وأعمالها، وتقوى فيها الصلة بالله ﷻ والتحلي بالأخلاق المحمودة الباطنة والظاهرة، والتي على رأسها الإخلاص لله ﷻ والتخلي عن الآفات الباطنة التي تفتك القلوب وتفسد السراء.

والأصلان السابقان (**صحة الفهم وحسن القصد**) هما المذكوران في الآية الآنفة الذكر ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ...﴾ الآية،

وهما ما عبر عنهما ابن القيم رحمه الله بقوله: (إذا قام العبد بالحق.. وكان قيامه لله) وقد عبر عنهما أيضاً في موطن آخر بقوله:

(صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت فهومهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة.

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى.

ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو

أجـراً، فالعالم مـن يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيـه إلى معرفة حكم الله ورسوله)[1] ا.هـ.

ويتفـرع عن الإخلاص أصل ثالث هو ثمرة من ثمار القصد الحسـن والإخلاص، ألا وهو:

* * *

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٨٧).

الأصل الثالث

اجتماع الكلمة ووحدة الصف ونبذ الفرقة

إن حرص الدعاة والمجاهدين وحبهم للاجتماع والائتلاف وكرههم للفرقة والاختلاف لهو دليل على الإخلاص وحسن القصد، والعكس بالعكس، ذلك لأن حسن القصد وتجرده لله ﷻ ينفي الهوى وحظوظ النفس واللذان هما من أكبر أسباب الفرقة والبغضاء، فإنه لا يمكن لأصحاب الفهم الصحيح الواحد أن يتفرقوا، ويبغي بعضهم على بعض لاختلافهم في بعض الاجتهادات، إلا إذا وجد الهوى وسوء القصد، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد)[1].

ويكفي في التدليل على أن اجتماع الكلمة ووحدة الصف أصل من أصول النصر والتمكين، وأن التفرق والتنازع أصل من أصول الفشل والهزيمة قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ

(١) «الاستقامة» (١/ ٣١).

صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال:٧٣].

لقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة في تحذير الأمة من الفرقة والاختلاف، وبيان أنها سبب الفشل والنكبات، كما تبين لنا فيهما أن فرح شياطين الأنس والجن إنما هو في افتراق المسلمين، واختلاف كلمتهم لاسيما الدعاة والمجاهدين منهم، وأن غيظ الكافرين من الإنس والجن وغمهم حينما يرون اجتماع كلمة المسلمين وتآلفهم.

ولذا فهم لا يفتأون في الليل والنهار يسعون بالتحريش والتهريش في أوساط المسلمين. قال الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء:٥٣]، كما بين الله -تعالى- تراحم المسلمين فيما بينهم وتآلفهم وأن هذا يغيظ الكفار، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢٩].

وقال الرسول ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»(١).

وقال أيضاً ﷺ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ**»(٢).

ولما رأى اليهود اجتماع كلمة الأوس والخزرج بعد أن صاروا مسلمين ومتحابين متآلفين، وقد كانوا قبل ذلك أعداء متحاربين، غاظهم ذلك وغمهم، وسعوا للإفساد بينهم وتفريق كلمتهم، فذكروهم الحروب التي كانت بينهم وما قيل فيها من أشعار، حتى كادت فتنة القتال تنشب بينهم، لولا أن الله ﷻ أخمدها بحكمة نبيه محمد ﷺ ورحمته، وأنزل الله ﷻ في ذلك آيات بينات، قال فيها -سبحانه-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ...﴾ الآيات [آل عمران:٩٩-١١٢].

وأوصي بالرجوع إلى ما كتبته في مبحث سابق عن (حرب الجيل الرابع) لنرى تخطيط الأعداء لإذكاء الفرقة بين المسلمين، وإسهاماً في جمع الكلمة ونبذ الفرقة، أذكر بعض الوقفات التي تعين بإذن الله تعالى

---

(١) مسلم (٢٨١٢).

(٢) مسلم (٢٨١٣).

المخلصين من الدعاة والمجاهدين في توحيد صفوفهم، وجمع كلمتهم، وقطع الطريق على شياطين الجن والإنس في بث الفرقة والتحريش بين المسلمين.

الوقفة الأولى:

يجب على من يقوم بالرد على المخالف أن يراجع نيته، وذلك بأن تكون قومته لله ﷻ وحميةً لدينه، وليست حمية للنفس وإظهار الغلبة وشفاء للغيظ، وهذه مسألة دقيقة فكم من قائم حمية لنفسه لا لدين الله ﷻ وكم من قائم حمية لله ﷻ ولدينه في بداية أمره ثم لا يلبث أن يدخل حظ النفس والهوى، ويتحول الأمر إلى إثبات الذات والغلبة على الخصم. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (**وكذلك الحمية لله والحمية للنفس. فالحمية لله يثيرها تعظيم الأمر والآمر، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها**)[1].

ومن الآفات التي تنافي الإخلاص وتسبب الفرقة والاختلاف العجب والغرور بالنفس والاعتداد بها وازدراء آراء ومواقف الآخرين، ولا علاج لذلك إلا بالإخلاص والتبري من الحول والقوة وتحقيق التوكل على الله -عز وجل وحده- بالاستعانة به دون ما سواه، واليقين بأن المرء هالك ضائع خاسر لو وكله الله ﷻ إلى نفسه طرفة عين، وهذا عين تحقيق قوله -تعالى-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) «الروح» (٢٣٤).

فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ينفي الرياء، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ينفي العجب، والموفق من وفقه الله تعالى.

الوقفة الثانية:

الأصل في العلاقة بين المسلمين مهما اختلفوا أنها علاقة ولاء وتراحم وتغافر وتناصح، أما مع الكفار فليس لهم إلا البراءة والعزة عليهم، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وبناءً على علاقة الولاء والتراحم بين المسلمين يكون التعاون بينهم فيما اتفقوا عليه، والتناصح بينهم فيما اختلفوا فيه دون أن يحدث هذا الاختلاف منابذة وخصومة وعداوة، كما يبنى عليه حسن الظن بينهم، وإقامة الأحكام والمواقف على العدل والإنصاف فيما بينهم، والسعي للإصلاح إن حصل ما يفسد الأخوة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

الوقفة الثالثة:

على الدعاة والمجاهدين في حال الاختلاف والنقد أن (يسمعوا من بعضهم لا عن بعضهم)، وهناك فرق كبير بين السماع من الجهة المختلف معها وبين السماع عنها، إذ السماع عن المخالف يعتريه بالعنعنة مشوشات

كثيرة، منها سوء الفهم من الناقل، أو سوء التعبير من المنقول عنه، أو عدم التثبت والتوثيق، أو الكذب والهوى، ولاسيما إذا كان الناقل عن المخالف خصم له أو من أقرانه، وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي في »ميزانه« في ترجمة الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني ما نصه: (كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لاسيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد. وما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس، اللهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

أما السماع من بعضهم فإن كثيرًا من المشوشات السابقة تزول، حيث يسمع المختلفون الذين ينتقد بعضهم بعضاً سماعاً مباشراً من بعضهم، يذكر كل فريق حجته والملابسات التي عاشها والظروف التي أحاطت به، حتى صدر منه موقفه، كل ذلك وجهاً لوجه، وقد ينفي أحد الأطراف ما نسب إليه من موقف خاطئ أو يكذبه أو يصححه إذا كان النقل مشوهاً. كما أن في السماع مباشرة بين الإخوة المختلفين إجابة بعضهم لسؤالات بعض بشكل مباشر، الأمر الذي لا يملكه الناقلون للأخبار بالعنعنة. والمقصود أن في سماع الدعاة والمجاهدين بعضهم من بعض لا عن بعض يقضي على كثير من أسباب الخلاف ونزغات الشيطان وظلم بعضهم لبعض.

---

(١) «ميزان الاعتدال» (١/ ١١١).

الوقفة الرابعة:

على من يقوم بالدعوة إلى الله ﷻ أو الجهاد في سبيل الله تعالى، ولاسيما القادة منهم أن يكون لهم العناية التامة بعلم القواعد الشرعية وفقه الموازنات ومقاصد الشريعة، وذلك للحاجة الماسة لهذا العلم في نوازل الزمان والتعارض بين المصالح، والمفاسد ومآلات الأمور، واختلاف المواقف باختلاف الحال والزمان والمكان، وكما قيل: ليس العاقل من يعرف الخير من الشر، ولكن العاقل من يعرف خير الخيرين وشر الشرين.

ومن أهم هذه القواعد التي تعين على جمع الكلمة ونبذ الفرقة:

١- الجماعة أصل، فلا يضيع الأصل للمحافظة على الفرع، كما أتم ابن مسعود -رضي الله عه- الصلاة في منى وهو يرى القصر، وقال: «إن الخلاف شر».

٢- الموقف من المخالف -ولو كانت مخالفته بدعية ما لم تكن مكفرة- يختلف في حالة الضعف ووجود عدو كافر، يستبيح الجميع عنه في حالة القوة والتمكين، فبينما يكون الهجر للفاسق والمبتدع في حالة القوة والتمكين، فإن هذا لا يصلح أن يكون في حالة الضعف وتسلط الكافر الحاقد على الجميع. بل قد يكون من المتعين أن يتفق مع المخالف، ولو كان مبتدعاً في قتال العدو الكافر الصائل مع مناصحة المبتدع في ترك بدعته، فكيف إذا كان المخالف أو المخطئ من أهل السنة؟!

وهذا ما قام به شيخ الإسلام رحمه الله حينما اجتمع مع طوائف الأمة وفيهم الأشعري والصوفي من غير الغلاة، وجيَّش الأمة لقتال التتار ومقابلة ملكهم عندما أراد التتار اجتياح بلاد الشام.

وقد روى الذهبي رحمه الله في «السير»: (أن بعض علماء أهل السنة، ومنهم أبو إسحاق الفقيه اتفقوا مع الخوارج بقيادة أبي يزيد الخارجي في قتال الدولة العبيدية الباطنية، وقال عن الخوارج: هم من أهل القبلة وأولئك -يعني العبيديين- ليسوا من أهل القبلة، وهم بنو عدو الله، فإذا ظفرنا بهم لم ندخل في طاعة أبي يزيد لأنه خارجي)[1].
وهذا والله من الفقه والفهم لمقاصد الشريعة.

٣- إذا كان يترتب على إنكار المنكر منكر أكبر منه فلا يجوز الإنكار في هذه الحالة، كما ترك النبي ﷺ هدم الكعبة ليقيمها على قواعد إبراهيم -عليه السلام- خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام[2].

وكما ترك قتل عبدالله بن أبي الذي ظهر نفاقه وكفره خشية أن يقال: إن محمداً ﷺ يقتل أصحابه[3]. ومن ذلك أن مفسدة تفرق المجاهدين من فرح العدو الكافر، وإفشال الجهاد تربو على ما تفرق المجاهدون بسببه، فتنازل عن ذلك حفاظاً على وحدة الصف. ومن

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ١٥٤).
(٢) البخاري (١٥٨٦)،ومسلم (١٣٣٣).
(٣) البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

ذلك نهيه ﷺ أن تقطع يد السارق في الغزو خشية لحوق صاحب الحد بالمشركين حمية وعصبية[1].

الوقفة الخامسة:

ليس لازم المذهب مذهباً. وبناء على هذه القاعدة فلا يلزم القائل بلازم قوله، وما يترتب عليه ويؤول إليه من المآلات، ما لم يلتزمه صاحب القول؛ إلا أن يكون حقاً، ولكن إلزام القائل بلازم قوله يستخدم في المناظرات لإظهار تناقض الخصم وإبطال مذهبه الذي يقول به. وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هل لازم المذهب مذهب أم لا؟

فأجاب: (وأما قول السائل هل لازم المذهب مذهب أم ليس بمذهب، فالصواب أن لازم مذهب الإنسان ليس بمذهب له إذا لم يلتزمه، فإنه إذا كان قد أنكره ونفاه كانت إضافته إليه كذباً عليه، بل ذلك يدل على فساد قوله وتناقضه في المقال)[2].

وقال في موطن آخر: (وعلى هذا فإن لازم قول الإنسان نوعان:

أحدهما: لازم قوله الحق، فهذا مما يجب عليه أن يلتزمه فإن لازم الحق حق، ويجوز أن يضاف إليه إذا علم من حاله أنه لا يمتنع من التزامه بعد ظهوره، وكثيراً ما يضيف الناس إلى مذهب الأئمة من هذا الباب.

والثاني: لازم قوله الذي ليس بحق، فهذا لا يجب التزامه، إذ أكثر ما فيه أنه قد تناقض، وقد ثبت أن التناقض واقع من كل عالم غير النبيين عليهم السلام،

---

(١) أبو داود (٤٤٠٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٢١٧).

ثـم إن من عرف من حاله أنه يلتزمـه بعد ظهوره له فقد يضاف إليه، وإلا فلا يجوز أن يضاف إليه قول لو ظهر له فسـاده لم يلتزمه؛ لكونه قد قال ما يلزمه، وهو لا يشعر بفساد ذلك القول ولا بلازمه)[1].

وفهم هذه القاعدة وإدراكها يسـاهم في حل إشكالات كثيرة من شأنه جمع الكلمة، وذلك بعدم تحميل شخص أو طائفة ما لا يحتمل وإلزامه بما لم يلتزمه. ذلك أن كثيرًا من الخلافات والاتهامات التي تكون بين الأشخاص أو الجماعات إنما تنشأ من إلزام القائل بلازم قوله، ومن ثم يتخذ معه موقف المفارقة والمفاصلة، لاسيما إذا كان اللازم يوقع صاحبه في البدعة أو الكفر، ومـن أمثلـة ذلك ما يقفـه بعض الغيورين عـلى العقيدة والجهـاد برمي من يفـرق بين فعل الكفر وفاعلـه، وأن تكفير المعين لابد فيه من توفر الشروط وانتفـاء الموانع بأنه مرجئ مبتـدع، أو أن من يرى أن الجهاد العام في الثغور فـرض كفاية، وليس فرض عـين؛ لاكتفاء أهل البلد المغزو برجاله: أن هذا من المخذلين عن الجهاد المحسوب على الأنظمة المفسدة أعداء الجهاد.

والأمثلـة كثـيرة ذكر بعض أهل العلم منها عـدم إلزام المرجئة الذين يقولـون: إن الإيـمان هو التصديق بـأن إبليس وبعض اليهـود وأبا طالب مؤمنون؛ لأنهم مصدقون مقرون لكون المرجئة لم تقل بذلك ولم تلتزمه.

الوقفة السادسة:

مهما اختلـف الدعاة والمجاهدون فيما بينهم، فإن التكفير واسـتباحة الدماء بينهم خط أحمر لا يجوز الوصول إليه، وإذا تحول القتال إلى أن يكون

(١) «الفتاوى الكبرى» (٤/ ٢٦).

بين المجاهدين فلا خير يرجى منهم، ويتحتم على من يحب لنفسه النجاة اعتزال الجميع والإقبال على إصلاح النفس والدعوة إلى الله، وإن مثل هذه الفتنة لا يجوز التقليد فيها واتباع الداعين إليها، فالجهاد عبادة عظيمة لله -تعالى- يحبها الله ﷻ أما القتال بين المسلمين فإنه مكروه مبغوض لله -تعالى- فلا يجوز تقديم مرادات البشر وما يحبون على مراد الله -تعالى- وكل عبد يأتي يوم القيامة ربه ﷻ فرداً يجادل عن نفسه، وليس معه أحد من متبوعيه، ولا ينفعه أن يقول: اتبعت فلاناً أو طائفة من الناس.

وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الرغم من حبه العظيم لخليفة رسول الله ﷺ الصديق الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه وثقته في علمه وإيمانه وشفقته، إلا أنه ناظره في قتال المرتدين من أهل اليمامة، حين خفي عليه مشروعية قتالهم، فكيف بمن دون أبي بكر رضي الله عنه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما توفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر! كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلا الله، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلا الله، عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله**» قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق)[1].

(١) البخاري (١٣٩٩) ومسلم (٢٠).

وهـذا عبـدالله بن عمر ﷺ يوم أمر خالد بـن الوليد ﷺ أن يقتل كل رجـل منهم أسـيره يوم بني جذيمـة، فقال عبدالله بن عمـر ﷺ: (والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره)[1].

وعن عمر بن سـعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه قال: يا بني! أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسـاً؟! لا والله حتى أُعطى سـيفاً إن ضربت به مؤمناً نبا عنـه، وإن ضربـت به كافراً قتله، سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ الخَفِيَّ التَّقِيَّ**»[2].

وسـاق الذهبي بسنده عن حميد بن هلال قال: أتت الحرورية مطرف ابن عبدالله يدعونه إلى رأيهم، فقال: (يا هؤلاء! لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهمـا، وأمسـكت الأخـرى، فـإن كان الذي تقولـون هـدىً أتبعتها الأخـرى، وإن كان ضلالـة هلكت نفس وبقيت نفـس، ولكن هي نفس واحدة لا أغرر بها)[3].

الوقفة السابعة:

إن من الأسـباب التي توقـع في الفرقة واختـلاف الكلمة العجلة في اتخـاذ المواقـف وقلة الاسـتخارة والاستشـارة، لاسـيما إذا صـدرت من رمـوز العلـم المتبوعين، وعليه فـإن التأني والحلم وكثرة اسـتخارة الله ﷻ واستشـارة أهل العلم والتقوى والعقل والحكمة تعد من أسباب التوفيق

(١) البخاري (٦٦٧٩).
(٢) الحديث رواه مسلم (٢٩٦٥)، والأثر مروي في «الحلية» (١/ ٩٤).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٥).

واجتماع القلوب ووحدة الصف، ولئن يخطئ الرجل في التؤدة والتأني أهون من أن يخطئ في العجلة والطيش.

الوقفة الثامنة:

إن من أعظم الوسائل التي تستجلب بها الألفة واجتماع القلوب بين المسلمين، سؤال ذلك من علام الغيوب ومالك القلوب ومصرفها، إذ لا أحد يؤلف القلوب سوى الله ﷻ بعلمه وعزته وحكمته ورحمته، قال الله -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣]، وإذا علم الله ﷻ صدق الداعين استجاب لهم دعاءهم.

لذا ينبغي أن يتوجه الدعاة والمجاهدون إلى الله ﷻ في أوقات الإجابة بأن يجمع كلمة المسلمين، وأن يؤلف بين قلوبهم، ويوحد صفوفهم، وأن يعيذهم من التفرق والاختلاف.

أسأل الله ﷻ أن يجمع كلمة الدعاة والمجاهدين على الحق، وأن يؤلف بين قلوبهم ويوحد صفوفهم، وأن يجعل جهادهم في سبيله وإعلاء كلمته، وأن ينصرهم على القوم الكافرين.

* * *

الأصل الرابع

الابتلاء والتمحيص والتمييز والصبر على ذلك

قال الله ﷻ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]، وقال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

وإن المتأمل في منهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وبخاصة في سيرة الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين ليرى هذه السنة الربانية واضحة وضوح الشمس، وذلك بما تعرض له المسلمون من الابتلاء والتمحيص في مكة والهجرة والجهاد في سبيل الله ﷻ، وأنهم لم يمكنوا إلا بعد التربية وبعد أن ابتلوا ومحصوا. قال الله ﷻ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

والابتلاء الذي يتعرض له أصحاب الدعوة نوعان:

أ- ابتلاء عقوبة وتكفير وتنبيه:

وذلك عندما يحصل الخلل في واحد من الأصول الثلاثة السابقة أو أكثر. فعندما يحصل الخلل في الفهم والمعتقد أو في النية والمقصد، أو في وحدة الصف وتآلف القلوب، فإن الله ﷻ قد يبتلي عباده هؤلاء ببعض

العقوبات والابتلاءات؛ لعلهم يرجعون ويراجعون أنفسهم، ويكفِّر الله ﷻ عنهم بهذه العقوبات سيئاتهم.

ب- ابتلاء تمحيص وتمييز للصفوف:

وهذا النوع من الابتلاء هو الذي نقصده في هذا الأصل، وهو الذي يتعرض له أصحاب الفهم الصحيح والقصد الحسن والصف الموحد، والحكمة منه تمحيص القلوب فيظهر ما فيها لأهلها، وتمييز الصفوف مما قد يكون فيها من المنافقين وأصحاب القلوب المريضة، والذين يكون ضررهم شديداً على الدعوة فيما لو بقوا مندسين في الصفوف ولم يعرف شأنهم، فيقدر الله ﷻ مثل هذا النوع من الابتلاءات ليتميز المؤمن الصادق من غيره، ويزيد الله ﷻ به المؤمنين إيماناً وثباتاً وصلابة في إيمانهم، قال الله ﷻ عن المؤمنين في غزوة الأحزاب عندما رأوا الشدائد والأهوال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]. وقال عن المنافقين الذين نجم نفاقهم بالابتلاء: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢].

فما زادت الشدائد المؤمنين إلا إيماناً وتسليماً، وما زادت المنافقين إلا مرضاً، وأخرج الله بها ما في قلوبهم من النفاق والكذب الذي ما كان ليعرف في حال السلم والأمان.

وإن أوقات التمحيص والابتلاءات لمن أشد أوقات الدعوة على أهلها، فهي تحتاج إلى جهد عظيم من التعليم والتربية والعبادة والتواصي

على الحق والتواصي بالصبر والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ومن علم الله ﷻ صحة فهمه وحسن قصده وعمله الصالح وحرصه على الوحدة والاجتماع، فإنه سبحانه يثبته، ويخرج من الابتلاءات، وقد قوي إيمانه وصلب عوده. وعلى مثل هؤلاء ينزل نصر الله تعالى ويقوم عز الإسلام، ومن يتمنى النصر قبل التمحيص والابتلاء فإنه لا يفقه هذه السنة.

وبقيت مسألة مهمة تتعلق بالتميز، ألا وهي ضرورة تميز أصحاب الدعوات الذين يريدون التمكين لدين الله تعالى عمن حولهم ممن ابتعدوا عن الدين وتعاليمه، وظهور ذلك في تصوراتهم وأفهامهم وفي عباداتهم وسلوكهم، وفي دعوتهم وصبرهم وتضحيتهم.

وعليهم أن يوصلوا ما يحملونه من علم ودعوة إلى طبقات الناس قدر استطاعتهم، حتى يتم البلاغ وتقوم الحجة، ويعرف أصحاب الدعوة بين الناس بمنهجهم الواضح وأهدافهم العالية. ومن أهم ما يقوم به أصحاب الدعوة حتى يحصل التميز القيام بفضح الباطل وأهله، وتبيين سبيل المجرمين للناس حتى لا تختلط عليهم الأمور، ويلتبس الحق بالباطل، وما لم يتم هذا البيان فإن الناس المضللون قد يستخدمون في مواجهة أصحاب الدعوة لعدم وضوحهم ووضوح دعوتهم في مجتمعات الناس، وذلك بما يستخدمه أعداء الدعوة من تضليل وتلبيس للناس، سواء في تشويه أهل الدعوة وإظهارهم بمظهر المفسدين والمهيجين للفتن، أو بما يضفونه على أنفسهم من أنهم أصحاب الحق وحماته.

فما لم يحصل البلاغ الكافي الذي يتميز فيه الحق من الباطل ويزول التلبيس والتضليل، فإن هذا الأصل أعني أصل التميز لم يتحقق بعد وعلى الدعاة الصبر والتأني وبذل الأسباب في تحقيقه قدر الاستطاعة، حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وحتى يعطي الواحد من الناس ولاءه لمن يختاره من أهل الحق أو الباطل عن علم وبينة وطواعية.

* * *

الأصل الخامس

التوكل على الله ﷻ والاستعانة به وحده مع الأخذ بالأسباب

وهو ما عبر عنه ابن القيم رحمه الله في قاعدته السابقة، بقوله: (وأن يكون قيامه بالله).

وهذا أصل مهم من أصول النصر والتمكين، وهو في حقيقته داخل في الأصل الأول والثاني، لأن صحة الفهم والمعتقد يجعل أصحاب الدعوة فاهمين لحقيقة التوكل، وأنه يعني تمام الثقة بالله ﷻ وغاية الاعتماد عليه مع فعل الأسباب المأمور بها، وعدم الاعتماد عليها؛ لأن خالق الأسباب ومسبباتها هو الله ﷻ، كما أن حسن القصد والإخلاص يجعلهم لا يتعلقون بالأسباب، ولا يعجبون بأنفسهم وإيمانهم وكثرة أتباعهم، وإنما يوقنون بأنهم ضعفة عاجزون، لا حول لهم ولا قوة إذا لم يعنهم الله ﷻ ويقويهم.

وإفراد هذا الأصل هنا في أصل مستقل مع دخوله فيما سبق للتأكيد على أهميته، ولوجود من يغفله في كثير من الأحيان، وفي زحمة الأخذ بالأسباب.

وإن الأخذ بهذا الأصل يعني تقوية اللجوء إلى الله ﷻ ودعائه والتضرع بين يديه في استجلاب النصر ودفع الشر، مما يكون له الأثر في إضفاء الطمأنينة واليقين والثبات، ومن اليقين والثقة بوعد الله ﷻ، اليقين

الذي لا يتزعزع بأن لله ﷻ جنود السماوات والأرض، وأنه سبحانه ينصر عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر بجند من جنوده، ويظهر ذلك للعيان ولو كان عباده في قلة من العدد والعتاد، ولو كان أعداؤهم في قوة عظيمة من العدد والسلاح وأدوات الدمار.

إنه لا يجوز لأصحاب الدعوة أن ينسوا نصر الله ﷻ لأنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- بجنوده الذين سخرهم لنصرة عباده الذين بذلوا ما في وسعهم من العبودية له سبحانه والدعوة إلى دينه وإبلاغه للناس والصبر على ابتلاءات الطريق، فلقد نُصر نوح ﷺ بالطوفان، ونصر هود ﷺ بالريح، وصالح ﷺ بالصيحة، ومحمد -عليه الصلاة والسلام- بالرعب، والملائكة التي قاتلت معه في بدر وأحد وحنين وغيرها من الغزوات، بل إن الناظر في انتصارات المسلمين بعد ذلك وفتوحاتهم؛ ليلحظ أنهم كانوا دائماً في قلة من العدد والعتاد، مقابل أعدائهم من الفرس والروم وغيرهم، ومع ذلك انتصروا بنصر الله ﷻ لهم.

إذن من لوازم التوكل على الله ﷻ اليقين بتدخل قوة الله ﷻ لنصر عباده المؤمنين بآيات ومعجزات وتثبيت للمؤمنين وبث للرعب في قلوب أعدائهم، وغير ذلك مما يقدره سبحانه في وقته المناسب وفق علمه سبحانه وحكمته.

والناس في نصر الله ﷻ لعباده المؤمنين بالآيات والمعجزات طرفان ووسط.

الطرف الأول:

الذين يرون أن الله ﷻ سينصر المسلمين بالآيات والجنود الذين يسخرهم للقضاء على أعداء الدين، ولو لم يأخذوا بأسباب النصر أو لم يكملوها، فما داموا مسلمين وأعداؤهم من الكافرين، فإن نصر الله ﷻ سينزل عليهم، لأنهم مسلمون وكفى، وهذا الفريق من الناس يفرط في العادة في الأخذ بأسباب النصر أو يستطول الطريق فلا يكملها، وإنما ينتظر خارقة وآية من الله ﷻ.

ولا يخفى ما في هذا القول من التفريط والغفلة عن سنن الله ﷻ في النصر والتمكين.

الطرف الثاني:

وهو مقابل للطرف الأول، وقد يكون ردة فعل له، وذلك بقولهم: إنه لكي ينتصر المسلمون على أعدائهم ويمكن لهم في الأرض فلا بد أن يكونوا مكافئين لعدوهم في العدد والعتاد والسلاح والأخذ بالأسباب المادية، ومثل هؤلاء يغلبون الأسباب المادية، ويفرطون في الأسباب الشرعية، ولا يلتفتون إلى الآيات والمعجزات والإعانات التي ينصر الله سبحانه بها عباده، المحققين لأسباب النصر متى شاء سبحانه، وعلم أن عباده المؤمنين قد استفرغوا ما في جهدهم من الأخذ بأصول النصر وأسبابه.

ومعلوم أن المسلمين في كثير من الأوقات وبخاصة في هذا الوقت، لم يصلوا ولم يكلفهم الله سبحانه بأن يصلوا إلى مستوى أعدائهم في القوة والصناعة والسلاح، لأنه ليس شرطاً في نزول النصر.

ولا يخفى ما في هذا القول من تطرف وغفلة عن أسباب النصر الشرعية، ونسيان لقوة الله تعالى، والذي لا يقف أمامها أي قوة في الأرض ولا في السماء، والتي ينصر بها عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر، واستحقوا أن يسخر لهم جنود السماوات والأرض.

الموقف الوسط:

وهو الحق -إن شاء الله تعالى-، وهم الذين بذلوا كل ما في وسعهم في الأخذ بأسباب النصر السالفة الذكر، حيث بذلوا ما في وسعهم في الأخذ بالعلم النافع والعمل الصالح وحسن القصد، وربوا أنفسهم على ذلك وبلغوه للأمة قدر استطاعتهم، حتى عرفتهم الأمة وما هم عليه من الحق، وعرفت أعداءها وما هم عليه من كفر وفساد، وأخذوا بالأسباب المادية المباحة المتاحة لهم. ومع أخذهم بهذه الأسباب فلم يعتمدوا عليها، بل تبرأوا من الحول والقوة، واعتمدوا على مسبب الأسباب، ومن بيده ملكوت السماوات والأرض، وانتظروا نصره المبين الذي وعد به عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر، وبذلوا ما في وسعهم في ذلك، وانتظروا تأويل قوله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]. ولم ينسوا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، بل هم موقنون بتدخل قوة الله ﷻ وظهور الآيات بعد أن يبذلوا وسعهم في الأخذ بالأسباب وإعداد العدة للجهاد، ولم يرهبهم حينئذ قوة أعدائهم من الكفرة والمنافقين، مهما بلغت القوة والدمار، لأن قوة الله ﷻ فوق

قوتهم ونواصيهم بيده سبحانه، ولو يشاء الله تعالى لدمرها عليهم، وأبطل مفعولها، ولكن هذا لا يكون إلا لمن حقق أسباب النصر والتمكين.

ومن رحمة الله ﷻ وحكمته أن يغفل الكفار، ويصرف قلوبهم عن الاعتبار بقدرة الله ﷻ وقوته ونصره لأوليائه ومعيته لهم، حيث لا حسابات عندهم إلا للأسباب المادية، وهذا من أسباب محقهم. أسأل الله ﷻ أن يشرفنا بنصرة دينه، وإعلاء كلمته وأن يمكن لنا ديننا الذي ارتضاه لنا.

الوصية الثالثة:

التذكير بقوله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. وهذه سنة من سنن الله ﷻ ووعد منه سبحانه لا يتخلف، وهذا يجعل المسلم يحسن الظن بربه، ويوقن بوعده، لا ييأس من نصرة الله ﷻ لعباده المؤمنين، فسيأتي نصر الله ﷻ مهما أجلب الأعداء من الكفار والمنافقين بخيلهم ورجلهم وعدتهم وعتادهم وكيدهم ومكرهم، فإن هذا ممحوق ومهزوم بإذن الله تعالى.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦]، وقال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨].

إن العاقبة للمتقين الصابرين، مهما أجلب أعداء الدين وتكالبوا على حربه، ومهما كثر المنافقون والمخذلون فإن العاقبة لأهل الاستقامة الذين

ثبتوا على دين الله ﷻ ولم يضعفوا ولم يهنوا ولم يستكينوا، ومهما كانت قوة الحرب المشبوبة على الإسلام، فإنها لا تفقدنا الثقة المطلقة في أن المستقبل لهذا الدين، لقد صمد الإسلام في حياته المديدة لما هو أعنف وأقسى من هذه الضربات الوحشية التي توجه اليوم إلى طلائع الصحوة الإسلامية في كل مكان.

إن الإسلام هو الذي حمى الوطن الإسلامي في الشرق من هجمات التتار، كما حماه من هجمات الصليبيين على السواء والمماليك الذين حموا هذه البقعة من التتار لم يكونوا من جنس العرب.. ولكنهم صمدوا في وجه المهاجمين حمية للإسلام لأنهم كانوا مسلمين. صمدوا بإيحاء من العقيدة الإسلامية، وبقيادة روحية من الإمام ابن تيمية رحمه الله.

لقد كافح الإسلام -وهو أعزل- لأن عنصر القوة كامن في طبيعته، كامن في بساطته ووضوحه وشموله وملاءمته للفطرة البشرية وتلبية لحاجاتها الحقيقية، كامن في الاستغناء عن العبودية للعباد بالعبودية لله رب العباد، وفي رفض التلقي إلا منه، ورفض الخضوع إلا له، ومن ثم لا تقع الهزيمة الروحية طالما عمَر الإسلام القلب، وإن وقعت الهزيمة الظاهرية في بعض الأحايين لحكم ربانية، ومن أجل هذه الخصائص لهذا الدين بمحاربة أعدائه، هذه الحرب المنكرة، ولكن الأمر الذي لا شك فيه -على الرغم من حرب الأعداء وكيدهم- أن المستقبل للإسلام وأهله.

ولكن ذلك مرهون بأن نحقق معاشر المسلمين أسباب النصر وأن نغير ما بأنفسنا، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا

﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]. وإن لم نغير ما بأنفسنا فلا يعني هذا أن لا يكون نصر لهذه الأمة ودينها، بل سينصر الله ﷻ دينه ويظهره على الدين كله، ولكن بقوم آخرين، يتحقق فيهم أوصاف من ينصرهم الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد:٣٨]، فها هنا ثلاث سنن إلهية مترابطة يكمل بعضها بعضاً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد:٣٨].

فنصر الله ﷻ آت لا محالة إما على أيدينا إن نحن غيرنا ما بأنفسنا إلى ما يحبه الله ويرضاه، أو يستبدل بنا قوماً آخرين تتحقق فيهم صفات عباده المؤمنين فينصرهم.

فنسأل الله ﷻ أن ينصر بنا دينه، وأن يجعلنا ممن يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم.

وإن الناظر في واقع المسلمين اليوم وما تعيشه الأمة من نوازل كبيرة وأحداث متسارعة؛ ليرى أنها -إن شاء الله تعالى- إرهاصات لنصر قادم وقريب لهذا الدين وأهله.

لا أقول هذا رجماً بالغيب، وإنما بما أراه من سنن الله ﷻ في الظالمين، وفي عباده المتقين، وبما يلوح لنا في الأفق من البشائر والعلامات والإضاءات التي نتراءى منها قرب النصر، وقبل أن أذكر بعض هذه العلامات أود التنبيه إلى مسألة مهمة تناسب المقام، ألا وهي:

التأمل العميق في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وكذلك في قوله ﷺ للأنصار عندما بايعوه بيعة العقبة، وقالوا له: ما لنا إن بايعناك على ذلك؟ فقال: «**لَكُم الجَنَّة**»[1]. وبالتأمل في هاتين الآيتين الكريمتين، والحديث الشريف يظهر لنا معنى عظيم جداً، ألا وهو أن الله ﷻ قد وعد عباده المؤمنين المجاهدين في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ بأن لهم الجنة على صراعهم مع الباطل، وربطهم بهذه الغاية العظيمة مترفعين على هذه الدنيا الفانية مع أنه سبحانه قد مكن لهم في الأرض ونصرهم، وهكذا ينبغي أن يتربى عليه الدعاة والمجاهدون، وذلك بأن تكون غايتهم رضوان الله ﷻ وجنته، ولا يتعلقون بشيء في هذه الدنيا يتقاضونه أجراً لجهادهم، هكذا كان الله ﷻ يربي عباده المؤمنين.

---

(١) «مجمع الزوائد» (٥٨٩١) وقال: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، كما رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله ثقات، ورواه أحمد مرسلاً (١٧١١٩) وقال الأرناؤوط: مرسل صحيح.

(لقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة. وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد، بحيث لا تتطلع وهي تبذل كل شيء، وتحتمل كل شيء إلى شيء في هذه الأرض. ولا تنتظر إلا الآخرة. ولا ترجو إلا رضوان الله. قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال، بلا جزاء في هذه الأرض قريب. ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام، حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل. وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل.. حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، آتاها النصر في الأرض، وائتمنها عليه لا لنفسها. ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي، وهي أهل لأداء الأمانة، مذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه. وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه)[1].

وبعد بيان وتجلية هذه المسألة المهمة أعود لأبشر نفسي وإخواني المسلمين بهذه البشرى: إن نصر الله ﷻ لهذا الدين وأهله لقريب، ومن علامات وبشائر هذا القرب ما يلي:

أولاً: وعد الله ﷻ الذي لا يتخلف، وقد سبق بيان ذلك وشروطه عند قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. ولا يشك

(١) انظر الآية (٣٦) من سورة المطففين «في تفسير ظلال القرآن».

في هذا الوعد إلا كافر أو منافق أو ضعيف إيمان جاهل بربه وصفاته، جاهل بسننه في عباده، قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٤-٧]. والملفت في هذه الآية أن الله ﷻ قد وصف الذين يشكون في هذا الوعد بأنهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أشرف العلوم، وهو العلم بالله ﷻ وأسمائه وصفاته وسننه وآياته، ومن ذلك قدرته سبحانه وقوته التي لا يعجزها شيء، ومحبته ومعيته ونصرته لأوليائه وحكمته، وعلمه في توقيت الأمور وخلقها، ومنها النصر والهزيمة، ثم وصف هؤلاء الشاكين الذين لا يعلمون هذا العلم الشريف بأنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي لا يؤمنون ولا يقيمون حساباتهم وموازينهم إلا على الأمور المادية المحسوسة في ظاهر الحياة الدنيا، وهذا من أسباب محقهم وتدميرهم، حيث أغفلهم الله ﷻ عن الأسباب الحقيقية للنصر والهزيمة، وقد ترتب على هذا أيضاً أن أغفلهم الله ﷻ عما يترتب على حماقاتهم وقراراتهم في حرب المسلمين، وهذا يعجل بنهاياتهم وانهيارهم كما هو المشاهد اليوم، وهذا من بشائر قرب نصر الله ﷻ.

ثانياً: بلوغ الغطرسة عند الأعداء أوجها وبلوغ الظلم ذروته، والله ﷻ يرى ويسمع ولا يعجزه شيء، والله ﷻ قد وضع للظلم والظالمين أجلاً ينتهون إليه، فيقصم الظالمين عنده، والظلم لا يستمر إلى ما لا نهاية، بل إن الله ﷻ يملي للظالم حتى يزداد في ظلمه وكبريائه وغطرسته ليسوقه سبحانه إلى نهايته

المحتومة حين يبلغ الظلم مداه، فيأتي وعد الله ﷻ بمحق الظلم وأهله، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩]، وإن الناظر اليوم فيما يقوم به أعداء الإسلام وعلى رأسهم أمريكا الطاغية من قتل ذريع في المسلمين، وما امتلأت به سجونهم وسجون الظالمين من الدعاة والمجاهدين، ثم هم في غيهم وغطرستهم يعمهون، وفي ظلمهم يتمادون؛ ليتراءى قرب نهايتهم وانهيارهم، ومن رحمة الله ﷻ بالمؤمنين واستدراجه للكافرين أنه سبحانه يغفل الكفار الظالمين عما يترتب على حماقاتهم من قرب نهايتهم وسريان روح اليقظة في قلوب المسلمين، قال الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩].

ثالثاً: ما تشهده السنوات الأخيرة من فضائح متلاحقة للمنافقين والكفار والطواغيت والملبسين التي تكشف عداءهم السافر للدين وأهله، وتكشف معاييرهم الزائفة، وكذبهم ومكرهم، وكون هذه الفضائح وهذا المكر يظهر للناس، فإن هذا من عوامل وقرب النصر للمسلمين، لأن بيان سبيل المجرمين وظهور كيدهم وبيان تلبيسهم أمر لازم يسبق محقهم وغلبة المسلمين عليهم.

فهذه نوازل الأمة في أفغانستان والعراق وسوريا ومصر واليمن كم كشفت والحمد الله رب العالمين للمسلمين من فضائح الكفار وعملائهم، وفضائح المنافقين من بني جلدتنا، قال الله ﷻ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ

﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

وقال -سبحانه-: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥]، ولقد مر بالأمة حيناً من الدهر خُدعت برايات وهتافات وادعاءات، نراها اليوم تنفصل من جسد الأمة، بعد أن ظهر عوارها وخبثها وولاءها لأعدائها، وتنكرها لدينها وعقيدتها، فهاهم الباطنيون الرافضة تنكشف باطنيتهم، ويعرف الناس خبثهم ونفاقهم، وأنهم دين ونحلة غريبة في جسد الأمة تنفصل عنها الآن، ولولا أن الله ﷻ قدر أحداث العراق وسوريا واليمن ولبنان ومصر؛ لبقي كثير من المسلمين مخدوعاً بهم وبتقيتهم وها هي العلمانية والليبرالية ورموزهما تتكشف لأبناء الأمة، فيتبرأون منها، وهي في طريقها إلى الانفصال عن جسد الأمة؛ لتستقر مع أخواتها من النحل الباطلة في مزبلة التاريخ، ويبقى الإسلام الصافي عزيزاً شامخاً، وهذا الوعي عند الأمة من عوامل نصرها ونصرها القريب -إن شاء الله تعالى-.

رابعاً: تلك العودة الحميدة والرجوع الصادق إلى دين الإسلام الحق من كثير وفئام من الناس، سواء من يدخل منهم في هذا الدين من الكفار، أو من يهتدي من أبناء المسلمين الفساق أو من يترك بدعته ونحلته الباطلة إلى منهج السلف أهل السنة والجماعة، هذا مع ما يبذله المفسدون من نشر للشبهات والشهوات، وصد عن سبيل الله تعالى، ولكنه دين الله ﷻ الذي تحن إليه الفطر النظيفة والعقول الصحيحة والقلوب السليمة. لاسيما بعد أن جرب كثير من الناس مذاهب ودعوات خداعة، لم يرو فيها إلا العناء

والشقاء والكذب والخداع، فحنين الناس اليوم إلى دين الإسلام الحق ودخولهم فيه أفواجاً من إرهاصات قرب النصر لهذا الدين وأهله.

خامساً: تسليط الله ﷻ على دول الكفر الظالمة، لاسيما الغرب الكافر، وعلى رأسه أمريكا الطاغية المتغطرسة، تلك الكوارث والنكبات التي تفتك الآن باقتصادهم، وذلك بما يعيشونه من انهيارات وإفلاس وعجز مالي، وبما يحصل بينهم من خلافات وتجسسات ستؤول بإذن الله تعالى إلى تصدع تحالفاتهم، وبما يعيشونه من جراء ذلك من تفكك بنيتهم السياسية والاجتماعية، يضاف إلى ذلك ما سبق بيانه من أنهم يعيشون الآن مكروهين عند الناس، بما تكشف من فضائحهم ومعاييرهم المزدوجة، وبيان خداعهم للناس، وبما يعيشونه من سقوط أخلاق شهواني ذريع، وهذا كله يؤذن بإذن الله تعالى بسقوطهم وتفككهم، كما سقط وتفكك المعسكر الشرقي، وفي هذا تمهيد وإرهاص بقرب نصرة هذا الدين، وظهوره على الدين كله ولو كره المشركون، وذلك بحول الله وقوته.

سادساً: ما تشهده الأمة من يقظة في مختلف جوانبها، وبما تعيشه من نوازل، كشفت لها حقيقة وهوية أعدائها، والتي أفرزت سريان روح المقاومة، وبعث عقيدة الولاء والبراء في النفوس، مما قويت به جذوة الجهاد في كثير من الثغور، واليقين بأنه لن يرفع الذلة والمهانة ويرد كيد الأعداء إلا الجهاد في سبيل الله تعالى، والإعداد له نفسياً وإيمانياً ومادياً، وهذا كله من علامات قرب نصر الله ﷻ لدينه وأوليائه.

نسأل الله ﷻ أن يرفع علم الجهاد، وأن يؤلف بين أهله، ويوحد صفوفهم، وأن يجنبهم الفرقة والاختلاف، وأن ينصرهم على القوم الكافرين.

وفي خاتمة هذه البشائر أقول لإخواني الدعاة والمجاهدين القابضين على الجمر أصحاب النفوس الكبيرة:

هنيئاً لكم ما أنتم عليه، فأنتم صفوة الناس، وأولياء الله، ولا أحد أحسن منكم قولاً ولا عملاً ولا غاية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وأنتم صمام الأمان لمجتمعاتكم وأمتكم، لأنكم تقومون بما قام به أنبياء الله ورسله -عليهم الصلاة والسلام- فلا تستوحشوا الطريق، ولا تشعروا بأنكم قلة وضعفاء، فأنتم أقوياء بإيمانكم، وأنتم الأكثرون إذا تذكرتم أنكم ضمن قافلة شريفة عظيمة تنتسب إليها ملائكة الرحمن الذين لا يحصون عدداً، وأنبياء الله ﷻ، والصالحون من عباده، بل والكون كله هو رفيق المؤمنين لأنه مسبح عابد لربه تعالى.

ولم ينفرد عن هذه العبودية الشرعية إلا الكافر الظالم لنفسه، فماذا يساوي بالنسبة لبقية العوالم المستسلمة لربها ﷻ، إنه لا يساوي شيئاً، وإنما هو نشاز عن الطريق اللاحب الواسع الذي هو طريق الله ﷻ وسبيله، قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر:٤].

واصبروا على طاعة الله ﷻ وترك معاصيه ولا يهولنكم ضغط الواقع وشدته. ولا تيأسوا من إصلاح الناس وإقامة دين الله في الأرض، فإن العاقبة للمتقين الصابرين، مهما أجلب أعداء الدين وتكالبوا على حربه، ومهما كثر المنافقون والمخذلون، فإن العاقبة لأهل الاستقامة الذين ثبتوا على دين الله ﷻ ولم يضعفوا ولم يهنوا ولم يستكينوا.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

الخاتمة

الحمد لله المتفرد بالفضل والإنعام والتوفيق والإحسان الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تحصل الهداية ويتم السداد، إن أطعناه فله المنة علينا، وإن عصيناه فله الحجة علينا، ما أصابنا من خير فبفضله، وما أصابنا من سوء فبعدله وبما كسبت أيدينا، ونسأله العفو والغفران، وبعد:

فهذا ما منّ الله به عليَّ من الكتابة في هذا الموضوع الجلل، أسأله سبحانه الإخلاص والصواب، وأن ينفع به كاتبه وقارءه وسامعه في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ويحسن في هذه الخاتمة أن أجمل أهم المسائل التي وردت في هذا البحث؛ لتعطي القارئ إلمامة سريعة عن فكرته وأهم عناصره:

المسألة الأولى:

ذكرت في المقدمة أهمية هذا البحث، ولاسيما في واقعنا المعاصر الذي تسلط فيه الأعداء من كل صوب وبكل وسيلة، مما أدى ببعض المسلمين إلى اليأس، وعند بعضهم تدور خواطر رديئة تشككهم في وعد الله ﷻ بنصرة الدين وأهله، وما ذاك إلا من الجهل بسنن الله ﷻ في المدافعة والصراع بين الحق والباطل، والجهل بأسماء الله الحسنى وما تقتضيه من الخلق والأمر، والجهل بأسباب النصر والهزيمة، فجاءت هذه الرسالة لتجلي هذه الأمور، وتنبه الجاهل إلى سنن الله ﷻ ومقتضى أسمائه الحسنى

وصفاته العلا، كما تضمنت المقدمة بيان الفرق بين الإرادة الكونية القدرية وبين الإرادة الدينية الشرعية، وأن ما يحدث في ملك الله ﷻ ومن ذلك الأحداث المعاصرة إنما هو بقدر الله ﷻ وإرادته وحكمته حيث أرادها كوناً وقدراً لحكم عظيمة، ولكنه سبحانه أراد منا ديناً وشرعاً مدافعة هذه النوازل والقيام بالتعبد لله ﷻ بشعيرة الجهاد في نصرة دينه ومدافعة الباطل، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب.

كما بينت في هذه المقدمة أهمية هذه الرسالة في بيان موقف المسلم من تسلط الأعداء وغزوهم لبلدان المسلمين عسكرياً وفكرياً وأخلاقياً: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

المسألة الثانية:

ذكرت بعد المقدمة الفصل الأول من هذه الرسالة، ويتضمن ذكر بعض الآيات من كتاب الله ﷻ الدالة على سنة المدافعة، وحتمية الصراع بين الحق والباطل، والحكم الإلهية من ذلك، وأرفقتها ببعض أقوال المفسرين عندها، وختمت ذلك ببعض الفوائد المستنبطة من هذه الآيات، ومن ذلك ذكر بعض الحكم الربانية من ابتلاء المؤمنين وتسليط الأعداء عليهم في وقت من الأوقات.

المسألة الثالثة:

وهي في الفصل الثاني من هذه الرسالة، وقد كان الكلام في هذا الفصل عن أنواع الغزو الذي يتعرض له المسلمون اليوم في بلدانهم، وذكرت أنه ثلاثة أنواع كبيرة وخطيرة:

الأول: الغزو العسكري واحتلال بعض بلدان المسلمين.

الثاني: الغزو الفكري الشبهاتي للعقيدة والأحكام.

الثالث: الغزو الإباحي الشهواتي للأخلاق.

وقد فصلت القول في كل نوع من هذه الأنواع وذكر صوره.

المسألة الرابعة:

وهي الفصل الثالث من هذه الرسالة، وضمنتها تنوع المواقف إزاء غزو الأعداء، وذكرت من هذه المواقف ستة مواقف:

الأول: موقف المنافقين المرجفين، **الثاني**: موقف اليائسين المحبطين. **الثالث**: موقف أهل الدنيا المترفين. **الرابع**: موقف المسايرين للواقع أهل الحلول الوسط. **الخامس**: موقف المستعجلين. **السادس**: الموقف الحق -(إن شاء الله تعالى)-.

المسألة الخامسة:

وهو موضوع الفصل الرابع، وفيها فصلت القول في الموقف الحق، وأنهم هم الذين لم ييأسوا ولم يتنازلوا ولم يستعجلوا، بل قاموا بنصرة هذا الدين ومدافعة غزو الكفار بأنواعه المختلفة، فنفرت طائفة منهم لرد عدوان الكفار العسكري، وذلك بالجهاد في سبيل الله تعالى باليد

والسنان، ونفرت طائفة أخرى من أهل العلم والبيان برد غزو الكفار الفكري والشبهاتي، وقامت بإزالة الشبهات، وبينت سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، وطائفة ثالثة نفرت لمدافعة غزو الكفار الإباحي الشهواني بالتربية والتحصين والاحتساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد فصلت القول في وسائل هذه المدافعات، وأفردت في هذا الفصل مبحث عن الشبهات وخطرها وكيفية مدافعتها، ومبحث آخر عن التأويل وجناياته في التاريخ الإسلامي وكيف كان باباً لتبرير الظلم وتحريف النصوص وبث الشبهات.

المسألة السادسة:

وهي موضوع الفصل الخامس، وقد ضمنتها بعض التنبيهات والوصايا المهمة على ما سبق، ومن أهمها:

أولاً: الحذر من أن تنظر أي طائفة نفرت في مواجهة الأعداء وغزوهم إلى الطائفة الأخرى بنظر التهوين من شأنها ودورها، بل على كل طائفة أن تفرح بعمل الطائفة الأخرى، وأن لا تحصر جهاد الأعداء في نوع من الجهاد هو ما تقوم به فقط، بل إن كل طائفة تكمل عمل الأخرى وتسانده.

ثانياً: على كل الطوائف التي قامت لنصرة دين الله ورد كيد الأعداء: أن تكون على علم بسنن الله ﷻ وعلى علم بأصول النصر والتمكين وأسباب الهزائم والفشل.

ثالثاً: التذكير ببعض البشائر التي تبشر بقرب نصر الله ﷻ لهذا الدين وأهله، وقد ذكرت هنالك ستة بشائر تبشر بقرب نصر الله ﷻ.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

في ٩/ ١/ ١٤٣٥هـ